تراث الإنسانية

سقط الزند

لأبى العلاء المعرى

الهيئة المصرية العامة للكتاب



أحمد إبراهيم الشريف

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤



مهرجان القراءة للجميع ٩٤

(مكتبة الأسرة)

تراث الإنسانية

الجهات المشتركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

الانجاز الطباعى والفنى

محمود الهندى

مراد نسيم

احمد صليحة

المشرف العام

د . سمير سرحان

سقط الزند
لأبى العلاء المعرى
أحمد إبراهيم الشريف

أولا ـ الشـــاعر :

فى شيخوخة الدولة العباسية حين أخذت العلة تدب فيها ، والانحلال يتطرق اليها من أطرافها فى شكل انفصال دويلات من الأطراف ، ويتغلغل فى باطنها فى شكل ثورة هنا وانتقاض هناك ، ويتمثل فى سائرها فى سقوط هيبة الخليفة فى أعين الناس حتى قال فيه المتنبى وهو يخاطب سيف الدولة :

فوا عجبـــا من وائل أنت سيفه
أما يتوقى شـفرتى ما تقلدا ...

وفى الوقت الذى بلغت فيه الثقافة العربية الاسلامية أعلى ذراها بعد أن اتصلت بعلوم اليونان وفلسفاتهم ونقلت عن الهند وفارس وغيرهما ، ورجعت الى مصادرها الذاتية . فأخذت تشيع العلوم مكتوبة ومتداولة على الألسنة بين الناس ، فظهرت علوم الدين والفقه والتفسير والحديث

واللغة والأدب والشعر والكلام والفلسفة والفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلك وغيرهما مما فاضت به خزائن الكتب في عواصم البلدان المتنافسة فيما بينها على الفضل والعلم والآداب ...

وفى الجيل الذى بدأ العربى فيه يشعر بحاجته الى تدحيض تهمة العجمة عن نسبه ولسانه ، فظهر التشدد فى اللغة العربية لذاتها على زعم أنهـا عصـبة العربى بين الأعاجم اذا كان الاسلام دينا مشتركا بين الجميع ...

وفى مدينة ليست بالقريبة ولا بالنائية ، وليست بالصغيرة ولا الكبيرة ، ولا الغنية ذات الوفر ولا الفقيرة ذات المتربة ، مدينة تقع فى واد بين مرتفعات يقال لها « معرة النعمان » نسبة الى النعمان بن بشير الأنصارى اذ اجتاز بها - فيما يقول الفيروز ابادى فى المحيط - فدفن بها ولدا فأضيفت اليه ، أو تديرها ، أى اتخذها دارا له ، فيما يقول ابن خلكان فى وفيات الأعيان ....

وفى أسرة منها معروفة بالعلم والعدل والعقل الراجح وسمت الوقار ، يتولى أبناؤها قضاء المدينة وما جاورها • ذكر ياقوت فى معجم الأدباء ممن تولى القضاء فى المعرة جد شاعرنا وعمه وأباه وأخاه الاكبر أبا المجد محمد بن عبد الله المعرى ، الواحد تلو الآخر على هذا الترتيب • كما ذكر أخاه الآخر وسبعة من أبناء اخوة الشاعر وأحفادهم كلهم

شعراء تولى بعضهم القضاء وبعضهم منصب الكتابة لنور الدين زنكي . وهو شاهد على فضل الأسرة وعراقة العلم والأدب فيها ، كما أنه شاهد على درجة من اليسار فوق الفاقة ودون الثراء الفاحش المتلف ....

وفي سنة ثلثمائة وثلاث وستين للهجرة (تسعمائة وثلاث وسبعين للميلاد) ولد أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري اللغوي الشاعر رهين المحبسين أو رهن السجون كما قال عن نفسه في اللزوميات :

أراني في الثلاثة من سجوني

فلا تسأل عن النبأ النبيث

لفقدي ناظري ولزوم بيتي

وكون النفس في الجسد الخبيث

أصابه الجدري وهو في الرابعة من عمره وذهب ببصره فقضى عليه بأول محبسيه أو أول محابسه ، فانعزل مرغما عن سائر اللذات ، فما وني الرجل في باقي حياته يضيف اليه أحباسا وسلاسل وقيودا ، كان أكبر ما يميزه الاعتزاز بالنفس كشأن سائر أسرته ، فانصب اعتزازه بنفسه على العقل والعلم والأدب ، وكان محقا في أن يرى لنفسه الحق أن يتبوأ أعلى ذروة في الدنيا . أما وقد قصرت به الحال

وأصابته الدنيا فى عينيه فليواجهها بالازدراء والتحدى وليستهن بها باضافة قيود مختارة الى قيده المفروض :

تأملنا الزمان فما وجدنا

الى طيب الحياة به سبيلا

ذر الدنيا اذا لم تحظ منها

وكن فيها كثيرا أو قليلا

وأصبح واحد الرجلين : اما

مليكا فى المعاشر أو أبيلا (١)

مات أبوه وهو فى الرابعة عشرة من عمره فرثاه بقصيدته المشهورة التى مطلعها :

نقمت الرضا حتى على ضاحك المزن

فلا جادنى الا عبوس من الدجن

وفقد بموت أبيه أحد معلميه الكبار الذين تتلمذ عليهم . ثم قضى بعد ذلك نيفا وعشرين عاما وليس فى تاريخه شىء كبير ، حتى اذا وافى على الخامسة والثلاثين . تراءى له أن يطلب المجد والثروة فى بغداد عاصمة الخلافة

---

(١) الأبيل : الراهب المعرض عن الدنيا .

والعلم يومذاك . فرحل اليها في سنة ٣٩٨ هـ وظل بها حتى سنة ٤٠٠ هـ حين يئس منها ورجع خائبا سيىء الظن بها وبالناس ، موقنا بأن الفضل والأدب وحدهما لا يكفيان لتسنم ذروة المجد والثروة وأن لابد الى جانبهما من سلم دنيوى يرتقى عليه الى الآفاق الدنيوية العليا لم يهبه الله علما به . الا أنه استفاد من رحلته هذه علما وأدبا واستفاد صداقة قوم أجلاء منهم أبو حامد الاسفرايينى الفقيه الشافعى، والشريف الرضى والشريف المرتضى الشاعران العلويان ، وخازن دار العلم ، أو أمين المكتبة ، الذى فتح خزانته للمعرى وفتح صدره لصداقته التى استمرت بعد عودة هذا الى بلدة فترة طويلة حتى انه كتب اليه فى سنة ٤١٤ هـ قصيدته التى مطلعها :

لمن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا
يظللهم ما ظل ينبته الخط

رجوت لهم أن يقربوا فتباعدوا
وأن لا يشطوا بالمزار فقد شطوا

وهى كرثائه لأبيه من قصائد « سقط الزند » ، وقد تضمنت هذه القصيدة أيضا اشارة الى آل الحكار الذين ينتمى اليهم أبو أحمد الحكارى الذى استنفد له زورقه الذى رحل فيه الى بغداد من أصحاب الأعشار الذين اغتصبوه حيث يقـول :

وعن آل حكار جرى سمر العلا

باكمل معنى لا انتقاص ولا غمط

فان ينتهم أمر السفينة فضلهم

فليس بمنسى الفراق ولا الشحط

وبينما هو في طريق العودة الى معرة النعمان وافاه نبأ موت أمه ، وكانت لها منزلة كبيرة في نفسه فوقع النبأ في نفسه وقوع الصاعقة ورثاها بقصيدته التي مطلعها :

سمعت نعيها صمى صمام

وان قال العواذل لا همام

ولكن صورتها ما برحت تعاوده في المنام كما يستدل من قصيدة أخرى من قصائد سقط الزند قالها في رثاء أمه اذ راودته في الرؤيا ومطلعها :

خلو فؤادي بالمودة اخلال

وابلاء جسمي في طلابك ابلال

تلك هي الاحداث البارزة في حياته حتى سن الاربعين ، وهي التي يلتمس فيها وفي شخصيته وتكوينها سبب اعتزاله الناس ، فلا ريب أن حبه للوقار وتجنب ما يثير السخرية به ، وأن اصابته بالجدري والعمى ، وأن

يأسه من سهولة انقياد الناس لفضله وعلمه الذى استقر بنفسه من رحلته الى بغداد وأن موت أمه قد تضافرت جميعا على تكوين هذه النظرة المتشائمة القاتمة عنده عن الحياة والأحياء · فقد ايمانه بالحياة وكره كل عمل فى سبيل استمرارها فاقلع عن الزواج خوف النسل ، وسخط على المرأة لأنها حبالة الحياة للعمل على اتصالها ، ولكنه لن يجارى الأنام فى هذا السجيل كما قال فى «اللزوميات» :

تواصل حبل النسل ما بين آدم

وبينى فلم توصل بلامي باء

تثاءب عمرو واذ تثاءب خالد

بعدوى فما أعدتنى الثؤباء

وظلت هذه الفكرة قائمة فى نفسه حتى الموت ، اذ أوصى أن يكتب على قبره بعد موته ، كأن انجاب البنين جناية عليهم :

هـذا جنـــاه أبـى علىّ

وما جنيــت عـلى أحـد

وكما فقد ايمانه بالحياة ووجوب استمرارها فانه فقد ايمانه بالناس وطرق معاشهم ، فاعتزلهم فى منزله لا يبرحه ولا يحب أحدا أن يطرق عليه بابه · ولكن أنى له أن يمنع الناس عن زيارته والتوسل اليه كلما جزبهم

أمر لا يصلح له غيره · حاصر صالح بن مرداس أحد قواد حلب مدينة المعرة وألح في حصارها حتى ضاق الناس ، فتوسلوا للشيخ أن يكون سفيرهم لدى صالح كي يرفع عنهم الحصار ، فاستجاب لهم لرقة قلبه وعطفه عليهم ، وهي رقة ليست غريبة على أمثاله من المتشائمين القانطين الذين يضيقون بالحياة والأحياء ، لأنهم يضيقون بالناس على ما هم عليه من خسة ودناءة ، ويعطفون عليهم لجهلهم وقلة حيلتهم · فلما ذهب الى صالح استجاب هذا له وقال : « قد وهبتها لك » · الا أن المعرى لم تفته السخرية في هذا الموقف فصوره في مقطوعة من اللزوميات يقول فيها :

تغيب في منزلي برهـــة ستير العيوب فقيد الحسـد
فلما انطوى العمر الا الأقـــ ـل وحان لروحي فراق الجسد
بعثت سـفيرا الى صــالح وذاك من القوم رأى فسـد
فيسمع مني سجع الحمــام وأسمع منه زئير الأســد
فــلا يعجبني هـــذا النفـــ ـاق فكم نفقت محنة ما كسد

وفيما عدا هذه السفارة لم يخرج من منزله نحو نصف قرن الا أن يكون خروجا لغرض ولفترة قصيرة مرة أو مرتين · فكان التزامه داره هذا هو ثاني محبسيه اللذين أشار اليهما الناس حين دعوه « رهين المحبسين » ·

وكما اعتزل الناس فى عقر داره ، اعتزل أكل اللحوم وما يخرج من الحيوان كالبيض واللبن وعاش نباتيا على مبدأ الرحمة بالحيوان ، وقيل أن الطبيب وصف له فى مرض ألم به مرة أن يأكل الفروج ، فاباه حين قدم اليه وخاطبه بقوله : « استضعفوك فوصفوك ، هلا وصفوا شبل الأسد ؟ ! » وكان يقول (اللزوميات) :

تسريح كفك برغوثا ظفرت به

أبر من درهم تعطيه محتاجا

لا فرق بين الأسك الجون أطلقه

وجون كندة أمسى يعقد التاجا (٢)

كلاهما يتوقى ، والحياة له

حبيبة ، ويروم العيش مهتاجا

وقد أثار بهذا على نفسه ثائرة الكثيرين ممن ناصبوه العداء واتهموه بالمروق من الدين والزندقة لآرائه فى الالاهيات ، فكانوا يرون فى تحريمه على نفسه أكل اللحوم نوعا من الخروج على قواعد الشريعة التى أحلت أكل الحيوان والسمك والطيور ، وقد أدى هذا الخلاف أو العداء الى الرسائل التى تبودلت بينه وبين داعى الدعاة بمصر

---

(٢) الأسك المصلم الأذنين ، والجون الأسود ـ كناية بهما عن البرغوث ؛ وجون كندة لقب ثور بن عفير وهو أبو حى من أحياء اليمن .

أبي نصر هبة الله بن موسى بن أبي عمران ، التي بلغت خمس رسائل ، ثلاثا من داعي الدعاة واثنتين من المعري اليه ، اذ يقول أبو نصر في أولاها :

« ولما رأيت ذلك ، وسمعت داعية البيت الذي يعزى اليه (أي المعري) وهو :

غدوت مريض الدين والعقل فالقني

لتعلم أنباء الأمور الصحائح (٣)

شددت اليه راحلة العليل في دينه وعقله الى الصحيح الذي ينبئني أنباء الأمور الصحائح ... » وهو يشير بهذا الى قصيدة للمعري في لزومياته يقول فيها :

غدوت مريض العقل والدين فالقني

لتسمع أنباء الأمور الصحائح

فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالما

ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح

ولا بيض أمات أرادت صريحه

لأطفالها دون الغواني الصرائح

(٣) هكذا وردت رواية البيت في رسالة داعي الدعاة كما أوردها ياقوت في معجم الأدباء جـ ٣ ص ١٧٨ .

ولا تفجعن الطـــير وهى غـــوافل

بما وضعت فالظلم شر القبـــائح

ودع ضرب النحل الذى بكرت له

كواسب من أزهـــار نبت فوائح

فما أحرزته كي يكــون لغيرهـــا

ولا جمعتــه للنـــدى والمنائـــح

مسحت يدى من كل هـــذا فليتنى

أبهت لشأنى قبل شيب المسائح

واستطرد النقاش من أكل اللحوم الى مشكلة الخير والشر وخالقهما وما جرى هذا المجرى من مسائل علم الكلام .

ولئن كان النقاش بينه وبين داعي الدعاة فى حدوده المعقولة ، لقد تطرف غير داعي الدعاة ، كابن الهبارية ، حتى طعن فى اسلامه وفى قواه العقلية وادعى أنه لما علم بأن داعي الدعاة يستدعيه الى حلب للقتل أو الاسلام ، سم نفسه ومات .

لكم عانى الرجل من الناس فى حياته وبعد مماته ، وهو الذى اعتزلهم وما يعتقدون !

وفي ربيع الأول من سنة ٤٤٩ هـ ألم به مرض دام ثلاثة أيام ، « ولم يكن عنده غير بني عمه ، فقال لهم في اليوم الثالث : اكتبوا عني ، فتناولوا الدوى والأقلام فأملى عليهم غير الصواب · فقال القاضي أبو محمد عبد الله التنوخي : أحسن الله عزاءكم عن الشيخ فانه ميت · فمات ثاني يوم » (٤) ووقف على قبره أربعة وثمانون شاعرا يرثونه من بينهم تلميذه أبو الحسن علي بن همام الذي يقول :

ان كنت لم تـــرق الدماء زهادة

فلقد أرقت اليوم من جفني دما

ودفن في ساحة من دور أهله بمعرة النعمان ·

ثانيا ـ مؤلفاته وتصانيفه :

ترك لنا المعري ـ حسبما ذكر ياقوت ـ نيفا وستين كتابا ، ضاع معظمها · منها ما أعجلته المنية عن تمامه ، ومنها مختصرات وشروح ، ومنها مطولات « كالفصـــول والغايات » ، حيث يقصد بالغايات القوافي ، « وهو كتاب موضوع على حروف المعجم ما خلا الألف ··· قيل انه بدأ بهذا الكتاب قبل رحلته الى بغداد وأتمه بعد عودته الى معرة النعمان ، وهو سبعة أجزاء ، وفي نسخة مقـداره

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٢٤٤ ·

مائة كراسة » (٥) ومنها الرسائل المطولة كرسالة الغفران التى كتبها ردا على رسالة ابن القارح ووصف فيها رحلة خيالية الى الدار الآخرة حيث قابل من قابل من مشاهير العرب فى الجنة وفى الأعراف وفى الجحيم .

وتشهد مؤلفاته بذوق رائق فى تسمية كتبه ، فقد سمى شرحه واختصاره لديوان أبى تمام حبيب بن أوس الطائى باسم « ذكر حبيب » ، وشرحه لديوان أبى عبادة الوليد بن عبد الله البحترى باسم « عبث الوليـــد » ، وشرحه لديوان أبى الطيب أحمد بن الحسين المتنبى باسم « معجز أحمد » . وناهيك بعنوان يدلك على خلاصة رأى صاحبه فى شعر صاحب الديوان .

على أن أهم ما أثر من شعره هو ديوان « ســـقط الزند » وديوان « لزوم مالا يلزم » . فأما « سقط الزند » فهو موضوع رسالتنـــا الأصلى ، وأما « لزوم مالا يلزم » فهو الديوان الذى اشتمل على فلسفته فى الحياة والأحياء وما وراء الموت والأخلاق والمرأة وما الى هذا من المســـائل الفلسفية والأخلاقية .

وقد التزم فى هذا الديوان قيودا لايقيده بها أحـد التزم مع حرف الروى حـــرفا آخر لا يتعداه كما التزم

---

(٥) معجم الأدباء ج ٣ ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .

الهمزة مع الحاء في قصيدته التي أسلفناها في تحريم أكل الحيوان . والزم نفسه ثانيا بالنظم على حروف المعجم كلها ، على الرفع والنصب والخفض والوقف ولم يغفل استغراق جميع البحور والأوزان والقوافي ما أمكن : كل هذا في أغراض يصعب على الناثر أحيانا ، بله الشاعر ، أن يسوقها في نسق سهل جميل .

ثالثا ـ سقط الزند

ديوان سقط الزند جزءان يضاف اليهما جزء خاص بالدروع أطلق عليه المعري اسم « الدرعيات » وتبلغ عدة قصائده بين قصيدة طويلة ومقطوعة صغيرة احدى وثلاثين قصيدة ، كما تبلغ قصائد جزئي الديوان أربعا وسبعين قصيدة ومقطوعة ، يضاف اليها سبع قصائد قصيرة أوردها جامع الديوان بعد الدرعيات معظمها في الغزل .

ولسقط الزند أهمية كبرى في تصوير نفس الشاعر وحياته وأحداثها وتطور فلسفته في الحياة التي مارسها والموت الذي واجهه في أقرب المقربين اليه وفي الأصدقاء والمعارف البعداء ، ففيه الشوق والحنين والفخر والمدح والتهنئة والغزل والرثاء والوصف والرحلات وفيه خلاصة آمال الشاعر وآلامه ، وسعوده ونحوسه ، وأفراحه وأحزانه ، وما استقى من كل هؤلاء من العبر والآراء .

والديوان سجل شعر المعري منذ بدأ يقول الشعر في الحادية عشرة من عمره ، ففيه قصائد قالها في شبابه كقصيدته التي رثى فيها أباه وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وفيه قصائد قالها في سن النضج كقصائده في بغداد ورثائه لأمه وهو عائد من عاصمة بني العباس ، وفيه أيضا قصائد قالها في كهولته وزمن مشيبه كرثاء أبي حمزة الفقيه الحنفي الذي يصفه في القصيدة بأنه رفيق الصبي ، وكقصيدته الى خازن دار العلم التي بعثها اليه سنة ٤١٤ هـ أي بعد أن تخطى سن الخمسين • وربما كان من بين قصائد الديوان ما صدر عن الشاعر بعد هذه السن ولكننا لا نعلم ذلك على اليقين ، الا أن الذي نعلمه أن الشاعر نفسه هو الذي جمع ديوانه هذا ، فليس هو بالذي يحتوي على آخر ما قال من شعر في أغراض الشعر المألوفة بمعزل عن اللزوميات في صياغتها وأغراضها •

ويتعذر علينا في عجالة كهذه أن نتتبع قصائده أو حياته كلها في الديوان ، فنكتفي بتصوير نفسيته التي تبدو من شعره صورة صغيرة نجهد أن تكون واضحة بقدر الامكان ، فنتتبع أغراضه بالاستشهاد وشيء من التحليل ، كيما نرى من ذلك دخيلة نفس الشاعر وما انطوت عليه من طموح أو قناعة ، ولا يفوتنا أن نرى منه أيضا فنه في القول والتعبير ، ولزومه مالا يلتزم به غيره من الشعراء في القريض نسجا وغرضا قبل أن يلتزم به في القوافي والعروض •

الفخـر :

لا تكاد تخلو قصيدة من قصـائد هذا الديوان ، فيما عدا الرثاء ، من الفخر ، بل ان بعض رثاء الشاعر ، ولاسيما ما رثى به بعض أهله ، يفيض بالفخر بهم كما يشهد على ذلك رثاؤه لأبيه ، وهي علامة على مدى اعتزاز الرجل بنفسه وعلمه وأدبه على الرغم من مظهر التواضع الذى تدثر به طول الحياة .

ولكن العلامة الظاهرة فى فخره هي اعزازه بالعلم والأدب ، لا بالأصل والنسب ، وان لم يكن نسبه أقل من أن يكون موضع الفخر والمباهاة ، وقلما يرد فى قصائده اشارة الى النسب الرفيع ، فاذا ورد من هذا شيء فأغلب ذلك فى مدائحه لبعض الأعلام من ذوى قرباه ، بل ان عدم اكتراثه بالفخر بالأجداد قد طوع له أن يفضل الفرس على العرب وأمرائها فى احدى قصائد سقط الزند التى قالها فى الشباب وفيها يقول :

لتذكـر قضاعة أيامهـــا وتزه بأملاكهـــا حمير

فعامل كسرى على قرية من الطف سيدها المنذر

فليس مثل هذا من يفتخـر بنسبه وان كان له فى نسبه مورد فخر ثرار ، بل فخره بنفسه وعلمه كما قال من قصيدة فى الفخر :

ورائـى أمـام والأمـام وراء

اذا أنـا لم تكبرنـى الكبراء

بأى لســان ذامنى متجاهل

على وخفق الريح فى ثنـــا،

أى كما قال فى أشهر ما أثر عنه من قصائد الفخر :

ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعل

عفـاف واقدام وحزم ونـائـل

أعندى وقد مارست كل خفية

يصدق واش أو يخيب سائـر

تعـد ذنوبى عند قوم كثيرة

ولا ذنب لى الا العلا والفضائل

كأنى اذا طلت الزمان وأهله

رجعت وعندى للأنام طوائـل

وقد سار ذكرى فى البلاد فمن لهم

باطفاء شمس ضوؤها متكامل

يهم الليالى دون ما أنا مضمر

ويثقل رضوى دون ما أنا حامل

واني وان كنت الأخير زمانه

لآت بما لم تستطعه الأوائل

ولى منطق لم يرض لى كنه منزل

على أنني بين السماكين نازل

ينافس يومي فى أمسى تشرفا

وتحسد أسحارى على الأصائل

فليس فى هذا الفخـــر كلمة واحـــدة عن آبائه وأجداده ، بل فخر بنفسه التى تسعى الى المجد فى عفة وحزم وكرم ، وبعقله الذى لايقع فريسة للوشاة والمنافقين وبقلبه الذى لايخيب سائلا يسأله فى حاجة ، ثم ينحى باللائمة على أعدائه الذين يعـــددون له الذنوب وما هى بذنوب بل علا وفضائل ، ثم يقول كلمته التى تعـــد « برنامجه » فى الحياة ، وهى أنه يبتغى أن يفعل ما عجز عنه الأوائل وان كان زمنه الأخير بين الأزمان .

ومن هذا القبيل كل فخر أعرب عنه فى شـــعره ، ولذا فانه يعد صورة لنفسه تدلنـــا على تركيب نفسيته دلالة أوضح من دلالة المدح أو الوصف عليها . فالاعتزاز وحده ليس هو علامته المميزة ، بل يضاف اليه التحدى والعناد الذى أضاف الى حبس العمى احباسا بعد أحباس ، وهى خصيصة نفسية تظهر جـــدا من قوله فى قصيدة أخرى :

أرى العنقاء تكبر أن تصادا

فعاند من تطيق له عنادا

وما نهنهت عن طلب ولكن

هى الأيام لا تعطى قيادا

فلا تلم السوابق والمطايا

اذا غرض من الأغراض حادا

تجنبت الأنام فلا أواخى

وزدت عن العدو فلا أعادى

فأى الناس أجعله صديقا

وأى الأرض أسلكه ارتيادا

ولو أن النجوم لدى مال

نفت كفاى أكثرها انتقادا

كانى فى لسان الدهر لفظ

تضمن منه أغراضا بعادا

يكررنى ليفهمنى أناس

كما كررت معنى مستعادا

مثل هذا الفخـــر قد يجنح بصاحبـــه الى العيب والتشهير والسخط على الناس والحياة ، ولكن المعـــرى ليس من هؤلاء العيابين الناقمين ، بل قصاراه أنه يريد الناس أكثر علما وأوفر فضلا وأحسن خلقا ، ولكنهم على ما هم عليه من الضعة والصغار والتهافت على السفســـاف والخسة والانحطاط أقل فى نظـــره مـــن أن يستحقوا الاحترام ، وقد يستحقون العطف والرثاء . والمعرى يسبغ عليهم سابغ عطفه ، ولا يقبل وهو الذى اعتزل دنيـــاهم أن ينفرد دونهم بجنة النعيم :

ولو أنـــى حبيت الخلد فردا
لما أحببت بالخلد انفـــرادا
فـــلا هطلت على ولا بأرضى
سحائب ليس تنتظم البلادا

بل انه هو الذى لايرى الناس الا خادما بعضـــهم بعضا ، ولا انتظام للحياة الا بهذه الخدمة المتبادلة بينهم راضين وكارهين ، عالمين وغافلين كما قال فى اللزوميات :

والناس للناس من بدو وحاضرة
بعض لبعض، وان لم يشعروا ، خدم

لم يتكسب أبو العلاء بشعره ، ولا طرق باب الأمراء والكبراء ، اعتزازا بنفسه وعلوا بقدره عن الاستجداء بالشعر ، ولهذا لانجد فى مدائحه الا ما كان من قبيل الاخوانيات ، موجها أغلبها الى أصدقائه ومعارفه • بل ان الكثير منها فى الحقيقة ردود على قصائد وردت اليه من أصدقائه الشعراء ، أو شكر على تحية أو هدية تلقاها منهم كقصيدته التى مطلعها •

عللانى فان بيض الأمانى
فنيت والظلام ليس بفان

فانها رد على قصيدة بعث بها اليه الشريف أبو ابراهيم موسى بن اسحق مطلعها :

غير مستحسن وصال الغوانى
بعد ستين حجة وثمان

ويتاكد هذا المعنى اذا نظرنا فى القيم التى يعلقها بممدوحيه ، ويراها فيهم جديرة بالتمجيد والتنويه ، فانها قيم الفضل والعلم والأدب ، أى هى للسمات الشخصية فى مقابل المكسوب من تراث الآباء ، والأجداد • ولربما عرج على ذكر آباء ممدوحيه ، ولكن بعد اثبات الفضل الذى به استحق الممدوح المديح •

قال قصيدة يجيب بها بعض الشعراء على قصيدة بمدحه بها أولها :

« أرقد هنيئا فاني دائم الأراق

ولا تشغفني ، وغيري ساليا فشق »

كان هذا الشاعر تلميذه فيما سبق وسافر عنه فبعث اليه بالقصيدة من مقامه الجديد ، فرد عليه المعرى يقول :

لله درك من مهر جرى وجـــرت

عتق المذاكي فخابت صفقة العتق

انا بعثناك تبغى القول من كثب

فجئت بالنجم مصفودا من الأفق

وقد تفرست فيك الفهم ملتهبا

من كل وجه كنار الفرس في السذق(٦)

أيقنت أن حبال الشمس تدركني

لما بصرت بخيط المشرق اليقق(٧)

هذا قريض عن الأملاك محتجب

فلا تذله باكثار على السوق

---

(٦) عيد للمجوس .

(٧) الابيض

فاذا ذكر الآباء والأجداد فهو المتبسط فى الحديث مع الصديق ، يتبادل معه الآراء والعواطف والخلجات التى يعلم أنها قسط مشترك بينه وبينه ، ويعلم أنها موضوع مناسب للحديث فى مجالس الألفة والمودة ، ففى قصيدته الى الشريف أبى ابراهيم العلوى ، يذكر اللهو والسمر ثم يعرج على الكلام فى آباء صديقه الذين يحق لكل مسلم أن يفخر بهم ، بل يجب على كل مسلم أن يوادهم امتثالا لقوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى » فيقول :

وعلى الأفق من دماء الشهيدين

على ونجله شاهدان

فهما فى أواخر الليل فجرا

ن وفى أولياته شفقان

ثبتا فى قميصه ليجىء الحشـ

ـر مستعديا الى الرحمن

وجمال الأوان عقب جدود

كل جد منهم جمال أوان

يا ابن مستعرض الصفوف ببدر

ومبيد الجموع من غطفان

أحد الخمســة الذين هم الأ

غراض فى كل منطق والمعانى

والشخوص التى خلقن ضياء

قبــل خلق المريـخ والميزان

ثم يستطرد فى هذا المعنى مســتعيرا من أســماء الكواكب والنجوم ومصطلحات الفلك استعارات ومجازات وتشبيهات هو بين شعراء العربية أستاذها الوحيد بغير منازع .

لهذا جاءت مدائحــه صورا معنوية لأشــخاص ممدوحيه ، ولم تكن صورة واحدة متكررة لرجل يستحيل وجوده لاكتمال كل كمال فيه ، وغياب كل نقص عنه ، رجل معصوم من الخطأ حتى فى الظن ، معصوم من الزلل حتى فى اللهو ، كتلك الصور التى نراها عند كثير من المادحين المتكسبين الذين يمدحون صناعة لا شعورا .

مدح أميرا عرف بالحرب والفروســية ، ومثله من يتفاءل بالطوالع والأسماء ، فذكر الشاعر تفاؤله باسمه « سعيد » ، ووصف قوة شكيمته وبأسه وخبرته بفنون الحرب والقتال فقال :

سالن فقلت مقصدنا سـعيد

فكان اســم الأمير لهن فالا

مكلف خيـله قنص الأعادى
وجاعل غابه الأسـل الطوالا

تـكاد قسيه من غـير رام
تمكن فى قلوبهـم النبالا

تكاد سيوفه من غير سـل
تجـد الى رقابهـم انسلالا

تكاد سـوابق حملته تغنى
عن الأقدار صـونا وابتذالا

ولربما أخذت المبالغة على المعرى فى مديحه ، كان يصف عروس الأمير الذى يهنئه بأنها محصنة فيقول :

تخفى ولا تظهـر الا اذا
أحـرزها منزلك الأعظـم

كأنهـا سر الالـه الذى
عنـدك دون النـاس يستكتم

ولكن المبالغة فى ذاتها ليست عيبا فى الشعر ، لأن المبالغة المعيبة هى ما يصدر عن خلل فى الحس والشعور يؤدى الى الاحالة التى لا رصيد لها من النفس ولا من الواقع ولا من الخيال ، بل رصيدها الوهم والوسـواس والربط بين مالا رباط بينه ، كوصف ابن هـانى لشيئة

المعز لدين الله الفاطمي بأنها فوق مشيئة القدر لأنه الواحد القهـار .

أما المبالغة التي تصدر عن شعور صحيح باستعظام العظيـم واستصغار الصغير ، فانهـا مـن الشعر في الصميم .

ومبالغة المعري من نوع غير هذين ، فهي من قبيـل من يستطرد بالفكرة الى منتهاها وغاية شوطها المنطقي فيستنزفها كل مافيها حتى ما يبقى زيادة لمستزيد أو هي مبالغة الرسام الذي يندفع في التعظيم والتبجيل فيخلع على صورته ثوبا من الحسن والرواء ، ويحلهـا المحل الرفيع ، لأنه رواء في نفسه بازائها ، ومحل تستحقه في نفسه وان لم يكن لها في الواقع المأثور ، ولكنه مع ذلك لاينسى الشبه الحميم .

مثال ذلك ما خاطب به أبا الخطاب الشاعر وكان مفرطا في القصر فقال :

وهززت أعطاف الملوك بمنطق

رد المسن الى اقتبال شبابه

ألبستني حلل القريض ووشيه

متفضلا فرفلت فـي أثـوابه

وظلمت شعرك اذ حبوت رياضه

رجلا سواه من الورى أولى به

فأجاب عنه مقصرا عن شأوه

اذ كان يقصر عن بلوغ ثوابه

الرثــاء

والرثاء فن أبى العلاء قبل كل فن سواه ، فهو فى العربية شاعر الرثاء وفيلسوف الحياة بلا مراء ٠٠ نعم فيلسوف الحياة لا فيلسوف الموت : الحياة الواقفة أمام الموت موقف الشك والحيرة والخوف والاشفاق وموقف الأمل أيضا والرجـــاء : أتراه نهاية كل نهاية ؟ ونومة لايقظة بعدها ؟ أم هو نقلة من دار الى دار ؟

انما ينقلون مـــن دار أعمـــا

ل الى دار شـــقوة أو رشـــاد

ضجعة الموت رقدة يستريح الجسـ

ـم فيهـا والعيش مثل السهاد

ثم ما الدار بعد الدار ؟ أدار تعاسة وشقاء أم دار نعيم وهنـــاء ؟ ٠٠ موقف الجاهل بأحـــق شيء منـــه بالمعرفة واليقين ، والصارخ صرخة اليأس والعجز مـــع ابن الرومى :

ألا من يريني غايتي قبل مذهبي

ومن أين ؟ والغايات بعد المذاهب؟

موقف الانسان الذي يريد الحياة بعد الحياة ولا يدري عاقبة المصير ، بل لايدري كيف يحدد هذا الرجاء : أيريدها حياة كالحياة أم تراه لا يرضاها على نسق الحياة وهل يرضاها على نسق سواه كما يقول العقاد :

ما وراء القبر في قول الثقات

حالة تحمد يوما سرها

لست بالراضي حياة كالحياة

لا ولا ترضى حياة غيرها

نعم انه ليحمد سرها ، ولكنه لا يستريح وسرها قائم لا مدخل اليه ولا مفتاح لمغاليقه .

والمعري هو فيلسوف هذه الحياة ولسانها الذي لا يفتأ يذكر الموت ولا ينساه لمحة عين ، ولا يملك ازاءه الا الحيرة والخوف والاشفاق . وهو في هذا عبقري مفطور . قال خلاصة ما يقال وهو بعد غلام صغير لم يجاوز الرابعة عشرة من عمره يوم مات أبوه فرثاه بقوله :

على أم دفر غضبة الله انها

لأجدر أنثى أن تخون وأن تخنى

جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذى

يراد بنا ، والعلم لله ذى المن

اذا غيب المرء استسر حديثه

ولم تخبر الأفكار عنه بما يغنى

تضل العقول الهبرزيات رشدها

ولا يسلم الرأى القوى من الأفن

وجدنا أذى الدنيا لذيذا كأنما

جنى النحل أصناف الشقاء الذى نجنى

فما رغبت في الموت كدر ، مسيرها

الى الورد خمس، ثم يشربن من أجن(٨)

وخوف الردى آوى الى الكهف أهله

وكلف نوحا وابنه عمل السفن

وما استعذبته روح موسى وآدم

وقد وعدا من بعده جنتى عدن

---

(٨) الكدر القطا ، وسيرها الى الورد خمس اى ترد الماء على مسافة خمس ايال ، والاجن الماء الاسن ٠

مجاور سكن في ديار بعيدة

من الحي ، سقيا للديار وللسكن

طلبت يقينا من جهينة عنهم

ولن تخبريني يا جهين سوى الظن

فان تعهديني لا أزال مسائلا

فاني لم أعط الصحيح فاستغني

نعم لم يعط الصحيح فيستغني .. لم يعط الصحيح الذي يستريح اليه ويطمئن به في مسالة المسائل وسر الأسرار ، ولو أنه تيقن من « غايته قبل مذهبه » لاستراح .

ونظن أن هذه القصيدة أقوى دلالة على عبقرية المعري – لسان الحياة الحائر ازاء الموت وما وراءه – من درره الكبار التى تلتها ، وتوجتها قصيدته في رثاء أبي حمزة الفقيه الحنفي ، لأن قصائد الشيخوخة قد تكون ثمرة العلم والدرس ، أو ثمرة الفلسفة المستفادة من تجاريب الحياة . أما قصيدة الصبا الباكر فلا مصدر لها الا العبقرية المفطورة والجبلة اللدنية في هذه الطبيعة المتأصلة فيه .

ولقد فاض سقط الزند بقصائد الرثاء ، وتعدد تعبير الشاعر وتلون بالوان مختلفة ، ولكن الفكرة دائما

هى الفكرة ، والفلسفة هى الفلسفة ، والحياة فى حيرتها ازاء الموت لا تطلبه ولا ترجوه ، ولا تنفك عنه ولا تحيد :

غير مجد فى ملتى واعتقادى
نـوح بـاك ولا ترنم شـاد
وشـبيه صوت النعى اذا قيـ
ـس بصوت البشير فى كل ناد
أبكت تلكم الحمـامة أم غنـ
ـت على فرع غصنها الميـاد
تعب غـير نافع واجتهـاد
لا يؤدي الى غنـاء اجتهـاد

ولا يفوتنا فى الكلام عن الرثاء عند المعرى أن ننظر فى مراثيه ، لنرى أهى مجرد مناسبات لبسط القول فى فلسفة الموت وما وراءه ، أم هى رثاء حق للمرثى يخامر نفس الشاعر بالحزن والألم ؟

المطلع على سقط الزند يرى أن المعرى يستجيشـه الميت كما يستجيشه الممات ، ففى مراثيه انفعال الحزن العميق والوجـد القوى لفـراق من ذهب من الأقرباء والأصـدقاء ٠ وحزنه الوان تتعدد وتتغير مع كل ميت راحل ، وتصويره لما يفقده مع كل فقيد صورة صادقة

لبدا الفقيد لا تختلط بسواه · فأبوه قاض له مشـــاركة في الشعر وله سمت ووقار :

مضى طاهر الجثمان والنفس والكرى
وسهد المنى والجيب والذيل والردن
فياليت شعرى هل يخف وقاره
اذا صار أحد في القيامة كالعهن
وهل يرد الحوض الروى مبادرا
مع الناس أم يأبى الزحام فيستأنى
حجا زاده من جرأة وســماحة
وبعض الحجا داع الى البخل والجبن
أمولى القوافي ، كم أراك انقيادها
لك الفصحاء العرب كالعجم اللكن
هنيئا لك البيت الجديد موسدا
يمينك فيــه بالســعادة واليمن

وصديقه أبو ابراهيم العلوى أمير فارس ذو غزوات بالسيف والرمح ، ينتمى الى آل البيت ، فهو ممن أوجب الله مودتهم على المؤمنين :

أعازل ان صم القنا عن نعيه

فواحسدا من بعده للقنا الصم

بكى السيف حتى أخضل الدمع جفنه

على فارس يرويه من فارس الدهم

تلذ العوالى والظبا فى بنانه

لقاء الرزايا من فلول ومن حطم

وبالله ربى ماتقلد صارما

له مشبه فى يوم حرب ولا سلم

فتى عشقته البابليــة حقبة

فلم يشفها منه برشف ولا لثم

كأن حباب الكأس وهى حبيبة

الى الشرب ما ينفى الحباب من السم(٩)

فهذا وقد كان الشريف أبوهم

أمير المعانى فارس النثر والنظم

---

(٩) الحباب بالفتح الفقاعات تعلو الكأس ، وبالضم الأفعى والشرب بالفتح الشاربون .

اذا قيل نسك فالخليل بن آزر

وان قيل فهم فالخليل أخو الفهم(١٠)

والشيخ أبو حمزة الفقيه الحنفى لا نعرف له صورة الا التى صورها له أبو العلاء فأحسن تصويرها ٠

قصد الدهـــر من أبى حمزة الأ
واب مولى حجى وخدن اقتصاد
وفقيها افكاره شـــدن للنعما
ن مالم يشده شعر زياد (١١)
فالعراقى بعـــده للحجـــازى
قليل الخلاف سهل القيـــاد
وخطيبا لو قـــام بين وحوش
علم الضاريات بر النقاد (١٢)

---

(١٠) الخليل بن آزر ابراهيم عليه السلام ، وأخو الفهم الخليل بن أحمد ٠

(١١) النعمان اسم أبى حنيفة ، وزياد هو النابغة الذبيانى وعلاقته بالنعمان بن المنذر مشهورة ٠

(١٢) النقاد صغار الغنم ٠

روايا للحديث لم يحوج المعرو

ف من صدقـــه الى الاسناد

انفق العمر ناسكا يطلب ال

علم بكشف عن أصله وانتقاد

مستقى الكف من قليب زجاج

بغـروب اليـراع ماء مـداد

ذا بنـان لاتلمس الذهب الأ

حمر زهدا فى العسجد المستفاد

والشاعر الجامح فى شبابه قد استكان لأحداث الزمان فى شيخوخته وتعلم معنى الصبر على صروف الحياة ، وان لم تتغير فكرته عن الموت والحياة حين يرثى صديقه جعفر بن على بن المهذب فيقول :

أحسـن بالوجـد من وجـده

صبر يعيد النـار فى زنده

ومن أبى فى الرزء غير الأسى

كان بـكاه منتهى جهـده

فليـذرف الجفن على جعفر

اذ كان لـم يفتـح على نـده

والشيء لايكثر مداحـــه

الا اذا قيـــس الى ضـــده

لـولا غضى نجـــد وقلامـــه

لـم يثن بالطيب على رنـده

ليس الذى يبكى على وصله

مثل الذى يبكى على صده

والطـرف يرتـاح الى غمضـه

وليس يرتـاح الى سـهده

كان الأسى فرضا لو أن الردى

قال لنـا افـدوه فلم نفـده

تلك هى مراثى أبى العلاء التى تظهرنا على فلسفته فى موقف الانسان من الموت وما يجن وراءه من أسرار ومغيبات ، وعلى موقع المرثى المحزون عليه من نفس الشاعر ، وعلى صفة الفقيد التى لا تختلط بصفة فقيد سواه ، وعلى نفس الشاعر فى أطوارهـا بين عرامة الشباب وهـدوء المشيب .

ولقد طوع للمعرى أن يكون على هذا النهج فى الرثاء أنه لم يضطر الى رثاء شخص كل آصرته به أنه يجب أن

يرثى اكراما للأمير أو الوزير الذى يمت اليه بالأصرة والقرابة ، بل رثى من رثى لآصرة شخصية تلامس منه شغاف القلب ، فحزنه حزن حقيقى صحيح ، ورثاؤه صورة لحزنه على ما فقده فى الفقيد ، والموت تذكرة بموقف الحياة منه ، ومواجهة للغزه الذى لا يريد أن ينكشف لعين الانسان .

ولقد شقى المعرى لفقد أمة التى ماتت وهو فى طريق عودته من بغداد ، فرثاها رثاء الذى كان يأمل أن يفىء الى ظلها فانحسر عنه ظلها ، والذى كان يريدها مرفأ له من أعاصير الحياة ومصارع الأطماع التى رأى شاهدها فى بغداد ، فانهدم المرفأ قبل أن يدخله السفين .. كارثة ولا كالكوارث ، وفقد الا ككل فقد ، فلربما تعزى عن صديق بصديق ، ولكن ما عزاؤه عن أمه بعد أبيه ؟ هل يتضعضع للرزء وانه لرزء وايم الله كبير ؟ ما هو بالمعرى ان تضعضع ، بل ان له فى عناده وتحديه لكوارث الزمان وخطوبه ملجأ وملاذا :

سمعت نعيها صمى صمام
وان قال العواذل لا همام (١٣)

---

(١٣) اى هات ما عندك يا دهر من المصائب ولو قيل انى لا همة لى فى احتمالها . وصمام وهمام مبنيان على الكسر .

وأمتنى الى الأجداث أم

يعز على أن سارت أمامى

وأكبر أن يرثيها لسانى

بلفظ سالك طرق الطعام

كفانى ربها من كل رى

الى أن كدت أحسب فى النعام(١٤)

سقتك الغاديات فما جهام

أطل على محلك بالجهام

وقطر كالبحار فلست أرضى

بقطر صاب من خلل الغمام

وعاودته فى النوم فنكأت منه جرحا لا يندمل فقال :

خلو فؤادى بالمودة اخلال

وابلاء جسمى فى طلابك ابلال

ولى حاجة عند المنية فتكها

بروحى والأهواء مذ كن أهوال

---

(١٤) النعام قليلى ورود الماء للشرب .

اذا مت لم أحفل أبا لشام حفرة

حوتنى أم ريم بريمان منهال

دعـا الله أعاليت أنى أمامهـا

دعيت ولو أن الهواجر آصال(١٥)

مضت وكأنى مرضع وقد ارتقت

بى السن حتى شكل فودى أشكل

أرانى الكرى أنى أصبت بناجـذ

ألا ان أحلام الرقاد لضـلال

أجار حتى العظمى تشبه ساهيا

بسن لها فى ساحة الفم أمثال(١٦)

وبين الردى والنوم قربى ونسبة

وشتان برء للنفوس واعـلال

اذا نمت لاقيت الأحبة بعد ما

طوتهم شهور فى التراب وأحوال

---

(١٥) أى حتى لو كان هجير الحياة رطبا كالاصال •

(١٦) ينكر على الحلم أن يشبه موت أمه الجارحة العظمى التى لا نظير لها بفقد سن من ثنيته ولها فى فمه أمثال •

الغـــزل :

ولكن هذا الذى أعفى منه المعرى فى اختلاق الرثاء والمدح لن لا تربطه به آصرة ، قد لاقاه فى الغـزل والنسيب · فهو رجـل رزين وقور معتز بنفسه ، وعلى بصره غشاوة العمى فهو يخشى الازراء والازدراء فلا يغشى مصارع العشاق ولايطرب طرب المجان ، ولا يعرف له فى حياته ، على الأقل بعد عودته من بغداد ، أى علاقة بالنساء ومجالس الطرب والمجون وهو مع ذلك يصر على ألا يقصر مداه عن فن متاح من فنون الشعر ، فقال الشعر فى الغزل ووصف الخمر فجاء غزله صورة واحدة تستطيع أن تنسبها الى شيخ المعرة أو الى شاعر سواه لولا ما فيها من اشارات لاتتيسر لغيره الى العلم بالفلك والنحو والفقه والعروض والتاريخ ··· وهى علوم على كل حـال ، والعلوم مورد متاح قد يحصل عليه كل انسان يبتغيه · فكأن الغزل عنده مران واختبار لعلمه وقدرته على التعبير وليس وصفا لخوالج الحب والحنين ·

ونساؤه اللائى وصفهن فى الحقيقة امرأة واحدة ، لاتكاد تتبين لها ملامح ولا سمات ، لأن دونها أستارا من حصانتها بين أهلها ذوى البأس ، أو لأن دونها من السيوف والرماح مالا اجتياز له بسلام ، أو لأن بعد الشقة وأينق الارتحال تبعدها عن سهولة المنال ·

ولا يفهمن من هذا أنه شبب بامرأة واحدة بذاتها كما فعل جميل بثينة مثلا ، بل الذى يفهم أن المرأة فى غزله صورة واحدة لا تتعدد فى سمات الوجوه ولا سمات النفوس والأخلاق : ولا حتى ظروف المعاش الطارئة التى قد تتغير بين حين وحين .

وعاطفته نحوهن عاطفة واحدة مطردة مع الشباب والشيخوخة ، شوق الى الوصال يمنعه مانع معتسف من الأهل والآل أو من السيوف والأهوال أو من الإسحار والآصال ، ويعلم الله ان مانعه الأكبر هو ادارة الشيخ الزاهد لا امتناع الرشا الحسناء .

فالغزل عنده فى الحقيقة حب « موقوف التنقيد » ولذلك كان يراوده كثيرا فى الأحلام كما يشهد بذلك الكثير من شعره . ولقد يغنى فى هذا الباب شاهد واحد أو شاهدان ، تبدو منهما هذه الخصائص التى اضطر اليها شاعر يرى وجوب القول فى النسيب ، وما هو من النسيب ، فى مضماره الأصيل :

قال من قصيدة قصرها على الغزل والفخر :

ان كنت مدعيا مودة زينب

فاسكب دموعك يا غمام وسكب

ضمن الغمائم لو علمت غمامه

سوداء ، هدباها نظير الهيدب

يا سعد أخبية الذين تحملوا

لما ركبت دعيت سعد المركب

غادرتني كبنات نعش ثابتا

وجعلت قلبي مثل قلب العقرب(١٧)

بالجفن بارزت القلوب وانما

بالنصل يبرز كل شهم محرب

كم قبله لك في الضمائر لم تخف

فيها الحساب لأنها لم تكتب

ومتى خلوت بها من أجلك لم أرع

فيها بطلعة عاذل من مرقب

ورسول أحلام اليك بعثته

فأتى على يأس بنجح المطلب

وقال في مقدمة قصيدة في المدح بدأها بالنسيب على سنة الشعراء الأقدمين :

يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر

لعل بالجزع أعوانا على السهر

---

(١٧) بنات نعش والعقرب من مصطلحات الفلك .

وان بخلت عن الأحياء كلهم

فاسق المواطر حيا من بنى مطر

ويا أسيرة حجليها أرى سفها

حمل الحلى لمن اعيا عن النظر

ماسرت الا وطيف منك يصحبنى

سرى أمامى وتأويبا على أثرى

لوحط لحلى فوق النجم رافعه

وجدت ثم خيالا منك منتظرى

يود أن ظلام الليل دام له

وزيد فيه سواد القلب والبصر

لو اختصرتم من الاحسان زرتكم

والعذب يهجو للإفراط فى الخصر

فهن نساء لاصفة ولاشخصية ، بل طبيعة متكررة باهتة المعالم والملامح والقسمات ، والعاطفة نحوهن لا تتغير بتغير أطوار العمر بين الحرامة والهدوء وليس فى نسيب المعرى ـ باختصار ـ صدق العاطفة بل فيه براعة الصنعة وسعة العلم والقدرة على التصرف فى المعانى والألفاظ .

وما يقال فى النسيب والغزل يقال فى الوصف بوجه عام : ذلك أن رجلا حبسه الزمان وأفقده بصره ، وحبس نفسه فى داره فوق حبس عينيه ، وصام عن شهوات الحس من خمر ونساء ، وعزف عن طعام شهى وسماع عبقرى ، لا يمكن أن يجد الموضوع ولا الآلة للوصف التصويرى الصادق الذى يتوفر فيه كل عضو من أعضاء الحس ما يشبعه من المنظر الموصوف .

قصاراه اذن أن يتخيل بقدر ما يسعفه الخيال ، وأن يصف عن علم ان فاته أن يصف عن حس وشهود .

وهذا هو الذى يبدو لنا من أوصاف المعري لليل والكواكب بنوع خاص ، تلك الصفات التى أطنب فيها غاية الأطناب ، والتى تدل على علم واسع بالفلك غير عجيب ولا مستغرب من رجل يهتم بالموت والحياة واستطلاع الطوالع المغيبات ، وتدل على معرفة وافرة باللغة تطوع له تصريف الأساليب كما يشاء ، وتدل على اطلاع لا تغيب عنه شاردة ولا واردة من تاريخ العرب وتراثهم ومن مواضع الاتفاق والاختلاف فى علومهم بين شتى مدارسهم .

ومن ذلك قوله يصف الليل :

ستعجب من تغشمرهـا ليـال

تباريـنـا كواكبهـا سـهـادا

كأن فجاجهـا فقـدت حبيبـا

فصيرت الظـلام لهـا حـدادا

وقد كتب الضريب بها سطورا

فخلت الأرض لابسة بجادا (١٨)

كأن الزبرقـان بهـا أسير

تجنب لا يفك ولا يفادى (١٩)

ومنه قوله في الليل أيضا :

ليلتي هذه عـروس من الز

نج عليهـا قلائـد من جمان

هرب النوم عن عيـوني فيها

هـرب الأمن عن فؤاد الجبـان

---

(١٨) الضريب الندى يتحول ثلجا والبجاد الكساء المخطط .

(١٩) الزبرقان القمر .

وكأن الهلال يهوى الثريا

فهما للوداع معتنقـان

قال صحبي في لجنيه من الجند

س والبيد اذ بدا الفرقـدان

نحن غرقى فكيف ينقذنا نجما

ن في حومة الدجى غرقـان

وسهيل كوجنة الحب في اللـ

ون وقلب المحب في الخفقان

مستبد كأنه الفـارس المعـ

ـلم يبدو معارض الفرسان

يسرع اللمح في احمـرار كما تسـ

رع في اللمح مقلة الغضبان

ضرجته دما سيوف الأعادى

فبكت رحمة له الشعريـان

قدماه وراءه وهو في العجـ

ز كساع ليست له قدمان

ثم شاب الدجى وخاف من الهـ

جر فغطى المشيب بالزعفران

ونضا فجره على نسره الـوا

قـع سيفا فهـم بالطيران

صورة مفصلة للكواكب والنجوم والليل في أوله وفي آخره ، اذا اختزلت منها صناعة اللفظ المحور في التشبيه والتورية لم يبق لك منها الا ما تجده في كتب الفلك من وصف « سهيل » بالاحمرار واللمعان ، ووصف الدجى بالسواد ووصف الفجر باللون الأشهب كلون الزعفران يغطى المشيب الأبيض وما جرى مجرى هذه الأوصاف .

ومنه وصفه للفرس اذ يقول :

وأعظم حادث فرس كريم

يكون مليكه رجلا شحيحا

تريك لـه سماء فوق أرض

فروج قوائم يعددن لوحا (٢٠)

---

(٢٠) السماء أعلى الفرس ، والأرض أسفلها ، واللوح الذي يبدو بين فرجة القوائم هو الهواء .

أصيل الجد سابقه ، تواه

على الأين المكرر مستريحـا

كان غبوقــه من فـرط رى

أيام جسمه فغدا مسيحا (٢١)

كان الركض أبدى المحض منه

فمج لبـانه لبنـا صريحـا

ومنه وصفه للسرى فى البيداء :

بتنا ، فريق فى سروج ضوامر

منا وآخر فى رحال عوامس (٢٢)

سلب الكرى الباب من ذاق الكرى

منا وطار ببعض لب الناعس

فـالمرء يلثم سيفـه وقرابـه

ويظنه وجنـات أغيد مائس

حيث الشمال عن العنان ضعيفة

والسوط يسقط من يمين الفارس

---

(٢١) الغبوق شراب الليل ؛ والمسيح العرق .
(٢٢) العرامس النوق الصلبة .

لاتحسبي ، ابلى ، سهيلا طالعا
بالشام فالمزنى شعلة قابس (٢٣)

ولسنا نظن أن أبا العلاء قد تعرض لسفر الليل على هذه الصفة ، ولا قلبته كفاه شيفا وعينانا ، ولا شفتاه قبلتا خد « أغيد مائس » ، بل هو وصف على السماع يقصد به اثبات المقدرة والكفاءة على تصريف المعانى والألفاظ ويدحض به عن نفسه مظنة العجز والقصور عما كان من فنون الأوائل وأغراض شعرهم ، وهو الذى يريد أن يأتي بما لم يأت به الأوائل وان تأخر به الزمان .

الدرعيات :

أفراد المعرى فى سقط الزند بابا فى وصف الدروع أطلق عليه اسم « الدرعيات » تقرؤه كله فلا تحصل منه على وصف للدروع الا أنها رقيقة النسيج لا تبهظ صاحبها وهو مدرع بها أو وهو طاو لها فى حمائله ، قوية السرد ترد عادية كل سلاح ، عزيزة على نفس صاحبها لأنها وقاية له ، والوقاية خير وأجدى من كل صولة بسلاح . فهو اذن باب لا يعدو عنده أن يكون فرصة أخرى يظهر فيها

---

(٢٣) سهيل لا يرى فى الشام ويرى فى اليمن ، فكان ابلة حسبت جذوة النار سهيلا فحنت الى موطنها الأصلى باليمن ، وما هى الا جذوة قبسها قابس .

تحكمه في اللغة وغريبها ، ومجالا يبدى فيه علمه بعادات العرب وأخبارهم ووقائعهم مصداقا لقوله في الفخر بعلمه في اللزوميات :

ما مر في هذه الدنيا بنو زمن

الا وعندى من أخبارهم طرف

الا أن للباب فضيلة غير الوصف المعهود للدروع والأسلحة التى تقاومها ، وهى وصف المواقف النفسية لأصحاب الدروع ، أجرى بعضها على لسان هؤلاء الأصحاب ، وأجرى بعضها الآخر على لسان من يتخيله من الناس أو من الدروع في موقف يختلقه ، منها قصيدة على لسان رجل كبر وأسن وترك لبس الدروع ، ومنها على لسان رجل رهن درعه فدفع عنها ومنها قصيدة على درع يخاطب سيفا ومنها على لسان رجل يسأل أمه عن درع أبيه، ومنها على لسان رجل نزل بامرأة فساومته درعا ، ومنها قصيدة يذكر فيها نساء احتجن الى لبس الدروع ، ولعل أعجبها وأشدها مخالفة للمألوف من عادات الناس تلك القصيدة التى أجراها على لسان أم عجوز تحض ابنها على اقتناء الدروع وتنفره من الزواج ، جمع فيها قصة شعرية نورد أكثرها هنا لطرافتها ولما فيها من تحليل نفسى بديع .

يقول على لسان الأم تخاطب ابنها :

عليك السابغات فانهنه

يدافعن الصوارم والأسنة

ومن شهد الوغى وعليه درع

تلقاها بنفس مطمئنة

وحبات القلوب يكن حبا

اذا دارت رحاها المرجحنة

نحن الى المكارم والمعالي

ولا تثقل مطاك بعبء حنة (٢٤)

فاني قد كبرت وما كعاب

ملائمة عجوزا مسنة

ترى تنومها وترى ثغامي

فتهزأ منهلة مسنة (٢٥)

فان يبيض بالحدثان فودي

فقد اغدو بفود كالأجنة

---

(٢٤) مطاك أى ظهرك ؛ والحنة الزوجة ·

(٢٥) التنوم نبات قاتم الخضرة كناية عن الشعر الاسود والثغام نبات شديد ابيياض كناية عن المشيب ·

اذا ما السارحات نظرن فيه

عجبن لما سرحن وما دهنه

اذا وقعت مداريها عليه

سترن بجنح ليل أو دفنه

فلا تطح الدوالف مرسلات

فكم أوقعن في أرض مجنه (٢٦)

يقلن فلانة ابنة خير قوم

شفاء للعيون اذا شفنه

لها خدم واقرطة ووشح

وأسورة تقائل ان وزنه

فبادر أخذها الخطاب واحذر

فواتك انها علق المضنة

رزان الحلم ، لورزئت سهيلا

أو الجوزاء مانهضت مرنة (٢٧)

---

(٢٦) الدوالف الخاطبات والارض المجنة كثيرة الجن .

(٢٧) سهيل والجوزاء من كواكب النحس ، وقامت مرنة أى صارخة .

رجـاح لاتحـدث جارتيهـا

بنجوى من حـديثك سمتكنه

كأن رضـا بها مسـك شنين

على راح تخـالط ماء شـنه

فـلا تستكثر الهجمات فيهـا

فاعراس بتلك دخـول جنـة

اذا قبلتهـا قـابلت منهـا

أليج النـور فى زهر مغنه

تغنـت من غنى مـال وصبر

وأمـا بالقـريض فلم تغنـه

وليست بالمعنـة فى جـدال

وان جدلت كما جدل الأعنه

أولئـك ماأتين بتصـح خـل

ولا دن المليـك ولا يدنـه

وقد أملن أن يأخـذن يـوما

رشـاك ولم يقمن بما ضمنه

ولـو طـاوعتهن لجئت يومـا

باخت الغول والنصف الصفنه(٢٨)

---

(٢٨) النصف المرأة فى منتصف العمر : والصفنة المترهلة .

اذا حاورتها نبذت حواري

والا تلف لى ذنبا نجنه (٢٩)

وبعد ، أفيعاب على المعرى انه لم يصف ما شاهده بعينه ووصف ما تخيله ببصيرته ؟

ان أستاذية الوصف في هذه القصيدة لتعجز المتفرغين لهذا اللون من وصف مشاعر النساء ودخائل نفوسهن على اختلاف السن والموقف . فهذه العجوز تحسن لابنها اقتناء الدروع لااعتقادا ولكن غيره من فتاة كعاب فتية لن تلائمها ، بل تعيرها بشعرها الأبيض وتتباهى عليها بسواد شعرها الفاحم ، ثم لا تلبث أن تنسى نفسها فتذكر أياما لها سلفت كانت فيها ذات شعر كجنح الليل يستر الماشطات ويدفنهن . ثم هذا الاعجاز في وصف حيل الخاطبات اللائى يغرين الفتى بأصل الفتاة ومالها وخدمها وثروة حليها ورجاحتها ورزانتها وجمال وجهها وثناياها ، ثم يستحثنه الى المبادرة بخطوبتها حتى لا يسبقه اليها سابق من خطابها الكثيرين .

كل هذا على لسان حماة المستقبل التى تكره زوجة ابنها ككائن مجرد قبل أن تعرف من تكون بالتحديد ،

(٢٩) نجنة أى نتجناه .

فتلقى الى ابنها بالنصيحة أن هؤلاء الخاطبـات كاذبات يأتينك بغير ما وعدن ولا ضمان لوعدهن ، ثم يبدو من حيث لا تريد سبب الكره على لسانها سجية تلقائية فيها وهو أن الزوجة لن تألف حماتها ولن ترضخ لتوجيهاتهـا ولن تضع نفسها فى خدمتها ، فتفسر الحماة هذا السلوك منها بأنه تسقط للذنب ان وجد واختلاق وتجن عليها ان عز عليها وجود الصحيح •

أى قصاص لا يحسد المعرى على هذا الوصف المبدع المعجز لأطوار النفوس ؟ •• وللمعرى بعد هذا فضـل الشاعر على الناثر المسترسل فى الحديث • بل فضـل الشاعر الذى يتعمد ايراد الغريب من ألفاظ اللغة ليبارى فيه الأقدمين وليثبت أنه آت بما لم يستطعه الأوائل ، وانه فى هذا لعلى حق مبين :

هذا هو المعرى منظورا اليه من ثقب صغير مهم هو ديوان « سقط الزند » :

رجل خلق بعقل الفيلسوف ونفس الشـاعر فكان شاعرا فيلسوفا يتغلب فيه الشعر على التفكير فيميزه عن الفيلسوف الشاعر كأفلاطون •

وجد نفسه فى عصر من عصور الفتنـة والانقلاب والشك الجائح فى كل ما تواضع الناس عليه فصـادف من نفسه كل ملكة فيها •

بحث فى العلوم والأديان والفلسفات والتاريخ لعله واصل منها الى يقين فأعوزه اليقين ، لأن شكه لا يرجع الى نقص فى العلوم بل الى سبب دخيـل فى النفوس التى لا تجد الاطمئنان الى شىء ، وحولها كل شىء متغير بين آن وآن .

أثر العزلة عن الناس والأحداث وهيهـات ان هو اعتزل الناس أن يعتزلوه ويتركوه بعيـدا عن مضطرب الأحداث لا يصيبه منها ولا حتى الرذاذ .

وأصابه الزمن بالعمى فى بصره ولكنـه أفاء عليه بالعروض الوافى فى جلاء البصيرة ونفاذ الرأى ، اذ امتنع عليه جلاء الرؤية ، فكان نصيبه هو القيم النادر بين الناس وكان رزؤه فى البسيط الذى لايتميز به أحد بين الطغـام والعوام .

وبصـير الأقوام مثـلى أعمى
فهلموا فى حندس نتصـادم

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٣٦٩/١٩٩٤

ISBN — 977 — 01 — 3966 — 1